الفصل التاسع

من روائع الكلم[١]

أنفع العمل:

من عرف نفسه اشتغل بإصلاحها من عيوب الناس.

من عرف ربه اشتغل به عن هوى نفسه، أنفع العمل أن تغيب فيه عن الناس بالإخلاص وعن نفسك بشهود المنة، فلا ترى فيه نفسك ولا ترى الخلق[٢].

إخلاص القصد:

من لم يكن الله مراده أراد ما سواه، ومن لم يكن هو وحده معبوده عبد ما سواه، ومن لم يكن عمله لله، فلا بد أن يعمل لغيره[٣].

أشد الناس خسارة:

أخسر الناس صفقة من اشتغل عن الله بنفسه، بل أخسر منه من اشتغل عن نفسه بالناس[٤].

العمر بآخره والعمل بخاتمه:

من أحدث قبل السلام بطل ما مضي صلاته، ومن أفطر قبل غروب الشمس ذهب صيامه ضائعًا، ومن أساء الأدب في آخر عمره لقي ربه بذلك الوجه، لو قدمت لقمة وجدتها ولكن يؤذيك الشر كم جاء الثواب يسعى إليك فوقف بالباب فرده بواب

---

(١) هذه كلمات منتقاة ومستخلصة من كلام الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ وهي كالحديقة الغناء تدهش الناظرين، وتبهج الناشقين وتسعد المتدبرين ولعلها زاد صالح للمتأملين وللدعاة المصلحين. أسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم.

(٢) الفوائد[٧٥].

(٣) مدارج السالكين(٢/ ٢٧).

(٤)الفوائد[٧٦].

سوف، ولعل وعسى! كيف الفلاح بين إيمان ناقص وأمل زائد، ومرض لا طبيب له ولا عائد، وهوى مستيقظ ، وعقل راقد، ساهيًا في غمرته، عمها في سكرته، سابحًا في لجة جهله، مستوحشًا من ربه، مستأنسًا بخلقه، ذكر الناس فاكهته وقوته، لله منه جزء يسير من ظاهره، وقلبه ويقينه لغيره.

لا كان من لسواك فيه بقية يجد السبيل بها إليه الْعُذَّلُ (١)

همة لا تتوقف:

من لم تكن همته التقدم فهو في تأخر ولا يشعر، فإنه لا وقوف في الطبيعة ولا في السير، بل إما إلى قدام وإما إلى وراء فالسالك الصادق لا ينظر إلى ورائه ولا يسمع النداء إلا من أمامه لا من ورائه(٢).

التوكل على الله:

لو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه وكان مأمورًا بإزالته لأزاله(٣).

من صدق توكله على الله في حصول شيء ناله، فإن كان محبوبًا له مرضيًا كانت له فيه العاقبة المحمودة.

وإن كان مسخوطًا مبغوضًا كان ما حصل له بتوكله مضرة عليه وإن كان مباحًا حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ما توكل فيه إن لم يستعن به، على طاعاته والله أعلم(٤).

---

(١) الفوائد [٨١-٨٢].

(٢) المدرج (١/ ٤٧٧).

(٣) المدارج (١/ ٨١).

(٤) المدارج (٢/ ١١٤).

الأخذ بالأسباب:

الالتفاف إليها بالكلية شرك مناف للتوحيد، وإنكار أن تكون أسبابًا بالكلية قدح في الشرع والحكمة، والإعراض عنها مع العلم بكونها أسبابًا نقصان في العقل وتنزيلها منازلها ومدافعة بعضها ببعض وتسليط بعضها على بعض وشهود الجمع في تفرقها والقيام بها هو محض العبودية والمعرفة وإثبات التوحيد والشرع والقدر والحكمة[١].

موقف العبد بين يدي الله:

للعبد بين يدي الله موقفان: موقف بين يديه في الصلاة، وموقف بين يديه يوم لقائه، فمن قام بحق الموقف الأول هون عليه الموقف الآخر، ومن استهان بهذا الموقف ولم يوفه حقه شدد عليه ذلك الموقف. قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ٢٦ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ [الإنسان: ٢٦-٢٧][٢].

عجبًا لأهل الغفلة!!

والعجب كل العجب من غفلة من لحظاته معدودة عليه وكل نفس من أنفاسه لا قيمة له إذا ذهب لم يرجع إليه، فمطايا الليل والنهار تسرع به ولا يتفكر إلى أين يحمل ويسار به أعظم من سير البريد ولا يدري إلى أي الدارين ينقل، فإذا نزل به الموت اشتد قلقه لخراب ذاته وذهاب لذاته لا لما سبق من جناياته وسلف من تفريطه حيث لم يقدم لحياته، فإذا خطرت له خطرة عارضة لما خلق له دفعها باعتماده على العفو وقال: قد أنبئنا أنه هو الغفور الرحيم وكأنه لم ينبأ أن عذابه هو العذاب الأليم[٣].

---

(١) المدارج (١/ ٤٤).

(٢) الفوائد [ص٢٢٤]

(٣) حادى الأرواح [ص٥]

مثل الدنيا:

مثالها مثال إناء مملوء عسلًا رآه الذباب فأقبل نحوه، فبعضه قعد على حافة الإناء وجعل يتناول من العسل أخذ حاجته ثم طار وبعضه حمله الشره على أن رمى بنفسه في لجة الإناء ووسطه فلم يدعه انغماسه فيه أن يتهنأ به إلا قليلًا حتى هلك في وسطه[١].

ومثالها مثال حبٍّ قد نثر على وجه الأرض وجعلت كل حبة في فخ، وجعل حول ذلك حب ليس في فخاخ، فجاءت الطير فمنها من قنع بالجوانب ولم يرم نفسه في وسط الحب، فأخذ حاجته ومضى ومنها من حمله الشره على اقتحام معظم الحب فما استتم اللقاط إلا وهو يصيح من أخذه الفخ له[٢].

ترك الصلاة:

لا يختلف المسلمون أن ترك الصلاة المفروضة عمدًا من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر، وأن إثم عند الله أعظم من إثم قتل النفس وأخذ الأموال، ومن إثم الزنا والسرقة وشرب الخمر، وأنه متعرض لعقوبة الله وسخطه وخزيه في الدنيا والآخرة[٣].

الروح والبدن:

خلق ابن آدم من الأرض وروحه من ملكوت السماء وقرن بينهما، فإذا أجاع بدنه وأسهره وأقامه في الخدمة وجدت روحه خفة وراحة في الخدمة فتاقت إلى الموضع الذي خلقت منه، واشتاقت إلى عالمها العلوي، وإذا أشبعه ونعمه ونومه واشتغل بخدمته وراحته، أخلد البدن إلى الموضع الذي خلق منه فانجذبت الروح معه فصارت في

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين [٢٨٤-٢٨٥].

(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين [٢٨٤-٢٨٥].

(٣) الصلاة وحكم تاركها [ص٥].

السجن، فلولا أنها ألفت السجن لاستغاثت من ألم مفارقتها وانقطاعها عن عالمها الذي خلقت منه كما يستغيث المعذب.

وبالجملة فكلما خف البدن لطفت الروح وخفت وطلبت عالمها العلوي وكلما ثقل وأخلد إلى الشهوات والراحة ثقلت الروح وهبطت من عالمها وصارت أرضية سفلية، فترى الرجل: روحه في الرفيق الأعلى وبدنه عندك، فيكون نائمًا على فراشه وروحه عند سدرة المنتهي تجول حول العرش وآخر واقف في المقدمة ببدنه وروحه في السفل تجول حول السفليات[١].

المراقبة

أرباب الطريق مجمعون على أن مراقبة الله تعالى في الخواطر، سبب لحفظها في حركات الظواهر، فمن راقب الله في سره، حفظه الله في حركاته في سره وعلانيته[٢].

المحبة

إذا غرست شجرة المحبة في القلب وسقيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب أثمرت أنواع الثمار وآتت أكلها كل حين بإذن ربها أصلها ثابت في قرار القلب وفرعها متصل بسدرة المنتهى[٣].

أنفع الناس لك:

أنفع الناس لك رجل مكنك من نفسه حتى تزرع فيه خيرًا أو تصنع إليه معروفًا، فإنه نعم العون لك على منفعتك وكمالك. فانتفاعك به في الحقيقة مثل انتفاعه بك أو

---

(١) الفوائد [١٩٢].

(٢) المدارج (٢/ ٦٦).

(٣) السابق (٢/ ٩).

أكثر. وأضر الناس عليك من مكن نفسه منك حتى تعصي الله فيه فإنه عون لك على مضرتك ونقصك[١].

الجنة:

واعجبًا لها كيف نام طالبها؟! وكيف لم يسمح بمهرها خاطبها، وكيف طاب العيش في هذه الدار بعد سماع أخبارها؟! وكيف قر للمشتاق القرار دون معانقة أبكارها؟! وكيف قرت دونها أعين المشتاقين؟! وكيف صبرت عنها أنفس الموقنين؟! وكيف صدفت عنها قلوب أكثر العالمين؟! وبأي شيء تعوضت عنها نفوس المعرضين[٢]؟!

السفر المحتوم:

الناس منذ خلقوا لم يزالوا مسافرين، وليس لهم حط عن رحالهم إلا في الجنة أو النار، والعاقل يعلم أن السفر مبني على المشقة وركوب الأخطار، ومن المحال عادة أن يطلب فيه نعيم ولذة وراحة، إنما ذلك بعد انتهاء السفر. ومن المعلوم أن كل وطأة قدم أو كل آن من آنات السفر غير واقفة، ولا المكلف واقف ، وقد ثبت أنه مسافر على الحال التي يجب أن يكون المسافر عليها من تهيئة الزاد الموصل، وإذا نزل أو نام أو استراح فعلى قدم الاستعداد للسير[٣].

غض البصر:

النظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان، فالنظرة تولد الخطرة، ثم تولد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة ثم تقوي فتصير عزيمة

---

(١) الفوائد[ص٢١٦].

(٢) حادي الأرواح [ص٧].

(٣) الفوائد [ص٢١٤].

جازمة فيقع الفعل ولابد، ما لم يمنع منه مانع وفي هذا قيل:الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده[١].

ومن أطلق لحظاته دامت حسراته، وفي غض البصر عدة منافع:

أحدها- أنه امتثال أمر الله الذي هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاده، وليس للعبد في دنياه وآخرته أنفع من امتثال أوامره ربه تبارك وتعالى.

الثانية- أنه يمنع من وصول أثر السهم المسموم -الذي لعل فيه هلاكه- إلى قلبه.

الثالثة- أنه يورث القلب أنسًا بالله وجمعية عليه، فإن إطلاق البصر يفرق القلب ويشتته ويبعده عن الله وليس على القلب شيء أضر من إطلاق البصر فإنه يورث الوحشة بين العبد وبين ربه.

الرابعة- أنه يقوي القلب ويفرحه كما أن إطلاقه البصر يضعفه ويحزنه.

الخامسة- أنه يكسب القلب نورًا كما أن إطلاقه يكسبه ظلمة ولهذا ذكر الله سبحانه آية النور عقيب الأمر بغض البصر.

السادسة- أنه يورث فراسة صادقة يميز بها بين الحق والباطل والصادق، والكاذب، وكان شجاع الكرماني يقول: من عمَّر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغض بصره عن المحارم، وكف نفسه عن الشهوات واعتاد أكل الحلال لم تخطئ له فراسة، وكان شجاع هذا لا تخطئ له فراسة.

السابعة- يورث القلب ثباتًا وشجاعة وقوة.

الثامنة- أنه يسد على الشيطان مدخله إلى القلب.

---

(١) الداء والدواء [٢١٣].

التاسعة- أنه يفرغ القلب للفكرة في مصالحه والاشتغال بها.

العاشرة- أن يبين العين والقلب منفذًا أو طريقًا يوجد انتقال أحدهما عن الآخر وأن يصلح بصلاحه ويفسد بفساده فإذا فسد القلب فسد النظر، وإذا فسد النظر فسد القلب وكذلك في جانب الصلاح[١].

خطورة الفرح بالمعصية:

الفرح بالمعصية دليل على شدة الرغبة فيها، والجهل بقدر من عصاه، والجهل بسوء عاقبتها وعظم خطرها، ففرحه بها غطى عليه ذلك كله، وفرحه بها أشد ضررًا عليه من مواقعتها والمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبدًا ولا يكمل بها فرحه، بل لا يباشرها إلا والحزن مخالطٌ لقلبه ولكن سكر الشهوة يحجبه عن الشعور به، ومتى خلي قلبه من هذا الحزن واشتدت غبطته وسروره فليتهم إيمانه وليبك على موت قلبه، فإنه لو كان حيًا لأحزنه ارتكابه للذنب وغاظه وصعب عليه ولا يحس القلب بذلك، فحيث لم يحس به فما لجرح بميت إيلام.

وهذه النكتة في الذنب قل من يهتدي إليها أو ينتبه لها وهي موضع مخوف جدًا، ومترام إلى هلاك إن لم يتدارك بثلاثة أشياء:

- خوف من الموافاة عليه قبل التوبة.
- وندم على ما فاته من الله بمخالفة أمره.
- وتشمير للجد في استدراكه[٢].

---

(١) السابق باختصار[٢٥٤-٢٥٧].

(٢) «المدارج» (١/ ٧٩).

اشتر نفسك:

اشتر نفسك اليوم فإن السوق قائمة، والثمن موجود، والبضائع رخيصة، وسيأتي على تلك السوق والبضائع يوم لا تصل فيه إلى قليل ولا كثير، ذلك يوم التغابن، يوم يعض الظالم على يديه[1]:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْحَلْ بِزَادٍ مِنَ التُّقَى ... أَبْصَرْتَ يَوْمَ الْحَشْرِ مَنْ قَدَ تَزَوَّدَا

نَدِمْتَ عَلَى أَلَّا تَكُونَ كَمِثْلِهِ ... وَأَنَّكَ لَمْ تَرْصُدَ كَمَا كَانَ أَرْصَدَا

شؤم المعصية:

اقشعرت الأرض وأظلمت السماء، وظهر الفساد في البر والبحر من ظلم الفجرة، وذهبت البركات وقلت الخيرات وهُزلت الوحوش، وتكدرت الحياة من فسق الظلمة، وبكى ضوء النهار وظلمة الليل من الأعمال الخبيثة، والأفعال الفظيعة، وشكا الكرام الكاتبون والمعقبات إلى ربهم من كثرة الفواحش وغلبة المنكرات والقبائح، وهذا والله منذر بسيل عذاب قد انعقد غمامه، ومؤذن بليل بلاء قد ادلهم ظلامه، فاعزلوا عن طريق السبيل بتوبة نصوح ما دامت التوبة ممكنة وبابها مفتوح.

سبيل الأمان ذكر الله:

ذكر الله - عَزَّ وَجَلَّ - يسهل الصعب، وييسر العسير ويخفف المشاق، فما ذكر الله عَزَّ وَجَلَ على صعب إلاهانه، ولا على عسير إلا تيسَّر، ولا مشقة إلا خفت، ولا شدة إلا زالت، ولا كربة إلا انفرجت، فذكر الله تعالى هو الفرج بعد الشدة، واليسر بعد العسر، والفرج بعد الغم والهم.

---

(١) «الفوائد» [ص٦٥].

ذكر الله - عَزَّ وَجَلَّ- يذهب القلب مخاوفه كلها، وله تأثير عجيب في حصول الأمن، فليس للخائف الذي اشتد خوفه أنفع من ذكر الله - عزَّ وَجَلَّ -؛ إذ بحسب ذكره يجد الأمن ويزول خوفه حتى كأن المخاوف التي يجدها أمان له[١].

يقظة النابهين:

لما رأي المتيقظون سطوة الدنيا بأهلها وخداع الأمل لأربابه، وتملك الشيطان وقياده النفوس رأوا الدولة للنفس الأمارة لجأوا إلى حصن التضرع والالتجاء كما يأوي العبد المذعور إلى حرم سيده.

شهوات الدنيا كُلعَبِ الخَيَّال، ونظر الجاهل مقصور على الظاهر أما ذو العقل فيرى ما وراء الستر.

لاح لهم المشتهى فلما مدوا أيدي التناول بان للأبصار خيط الفخ فطاروا بأجنحة الحذر وصوبوا إلى الرحيل الثاني ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾ [يس: ٢٦]، تلمح القوم الوجود ففهموا المقصود، فأجمعوا الرحيل قبل الرحيل وشمروا للسير في سواء السبيل: فالناس مشتغلون بالفضلات وهم في قطع الفلوات[٢] وعصافير الهوى في وثاق الشبكة ينتظرون الذبح.

وقع ثعلبان في شبكة فقال أحدهما للآخر: أين الملتقي بعد هذا؟ فقال: بعد يومين في الدباغة.

تالله ما كانت الأيام إلا منامًا فاستيقظوا وقد حصلوا على الظفر، ما مضى من الأيام أحلام وما بقي منها أماني والوقت ضائع بينهما[٣].

---

(١) الوابل الصيب [ص١٠٥].

(٢) الفلوات جمع فلاة وهي الصحراء الواسعة.

(٣) الفوائد [ص٦٣].

والله غالب على أمره:

سبق العلم بنبوة موسى وإيمان آسية فسيق تابوته إلى بيتها فجاء طفل منفرد عن أم إلى امرأة خالية عن ولد! فلله كم في هذه القصة من عبرة: كم ذبح فرعون في طلب موسى من ولد ولسان القدر يقول: لا نربيه إلا في حجرك[١].

من دقيق النعم:

من دقيق نعم الله على العبد التي لا يكاد يفطن لها أنه يغلق عليه بابه فيرسل الله إليه من يطرق عليه الباب من يسأله شيئًا من القوت ليعرفه نعمته عليه، قال سلام بن أبي مطيع: دخلت على مريض أعوده فإذا هو يئن فقلت له: اذكر المطروحين على الطريق، اذكر الذين لا مأوى لهم ولا لهم من يخدمهم، قال: ثم دخلت عليه بعد ذلك فسمعته يقول لنفسه: اذكري المطروحين في الطريق، اذكري من لا مأوى له ولا له من يخدمه[٢].

ثمار الاستغفار:

قلت لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ يومًا: سئل بعض أهل العلم أيها أنفع للعبد: التسبيح أو الاستغفار؟ فقال: إذا كان الثوب نقيًا فالبخور وماء الورد أنفع له وإن كان دنسًا فالصابون والماء الحار أنفع له فقال لي رَحِمَهُ اللَّهُ: فكيف والثياب لا تزال دنسة؟!

قد قيل: علامة رضا الله عنك إعراضك عن نفسك وعلامة قبول عملك احتقاره واستقلاله وصغره في قلبك، حتى إن العارف ليستغفر الله عقيب طاعته، وقد كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا سلم من الصلاة استغفر الله ثلاثًا ، وأمر الله عباده بالاستغفار عقيب الحج ومدحهم على الاستغفار عقيب قيام الليل، وشرع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عقيب

---

(١) الفوائد [ص٦٠].

(٢) عدة الصابرين [ص١٧٤].

الطهور التوبة والاستغفار فمن شهد واجب ربه ومقدار عمله وعيب نفسه لم يجد بُدًا من استغفار ربه منه واحتقاره إياه واستصغاره(١).

كيف تُسَدُّ فاقة القلب؟

في القلب خلة وفاقة لا يسدها شيءٌ ألبتة إلا ذكر الله - عَزَّ وَجَلَّ -، فإذا صار شعار القلب بحيث يكون هو الذاكر بطريق الأصالة واللسان تبع له فهذا هو الذكر الذي يسد الخلة ويفني الفاقة، فيكون صاحبه غنيًا بلا مال، عزيزًا بلا عشيرة، مهيبًا بلا سلطان، فإذا كان غافلًا عن ذكر الله - عَزَّ وَجَلَّ - فهو بضد ذلك فقير مع كثرة جدته، ذليل مع سلطانه، حقير مع كثرة عشيرته(٢).

الطريق إلى الله:

إن الله لا يصل إليه أحدٌ إلا من الطريق التي فتحها ونهجها على ألسن رسله ونصبها لعباده وسد جميع الطرق إليه دونها فلم يفتح لأحد قط إلا من تلك الطريق، فسالك من غيرها لا يصل إليه أبدًا، وكل من لم يصل إليه فهو واصل إلى سقر قال أبو القاسم الجنيد: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا طريق رسول الله ﷺ (٣).

نعمة الفقه في الدين:

كان الصحابة رضي الله عنهم أحرص الناس على استنباط أحاديثِ رسول الله ﷺ من القُرآن، ومَن ألزم نفسَه ذلك، وقرعَ بابه، ووجَّه قلبه إليه، واعتنى به بفطرةٍ سليمة، وقلب ذكي، رأى السنة كُلَّها تفصيلًا للقرآن، وتبيينًا لدلالته، وبيانًا لمراد الله منه، وهذا

---

(١) المدارج (٢/ ٦٢).

(٢) الوابل الصيب [ص٩٢].

(٣) الكلام على مسألة السماع [ص٤١٩].

أعلى مراتب العلم، فمن ظفر به، فليحمد الله، ومن فاته، فلا يلومَنَّ إلا نفسه وهِمَّته وعَجْزَه[١].

سبق الصديق:

فما سبق الصديق الصحابة بكثرة عمل وقد كان فيهم من هو أكثر صيامًا وحجًا وقراءة وصلاة منه ولكن بأمر آخر قام بقلبه حتى إن أفضل الصحابة كان يسابقه ولا يراه إلا أمامه[٢].

المحبوس من حبس عن الله:

أشق شيء على النفس جمعيتها على الله وهي تناشد صاحبها ألا يوصلها إليه وأن يشغلها بمن دونه فإن حبس النفس على الله شديد وأشد منه حبسها على أوامره وحبسها عن نواهيه فهي دائمًا ترضيك بالعلم عن العمل، وبالعمل عن الحال، وبالحال عن الله سبحانه وتعالى، وهذا أمرٌ لا يعرفه إلا من شد مئزر سيره إلى الله وعلم أن كل ما سواه فهو قاطع عنه[٣].

مرض القلب:

والقلب يمرض كما يمرض البدن وشفاؤه في التوبة والحمية، ويصدأ كما تصدأ المرآة وجلاؤه بالذكر. ويعرى كما يعرى الجسم وزينته التقوى، ويجوع ويظمأ كما يجوع البدن، وشرابه المعرفة والمحبة والتوكل والإنابة والخدمة.

إياك والغفلة عمن جعل لحياتك أجلًا ولأيامك وأنفاسك أمدًا، ومن كل ما سواه بد ولا بد لك منه.

---

(١) زاد المعاد [١٢٨].

(٢) المدارج (١/ ٤٣٨).

(٣) المدارج(٣/ ١٣٧).

قسوة القلب:

ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله، خلقت النار لإذابة القلوب القاسية، أبعد القلوب من الله القلب القاسي، إذا قسا القلب قحطت العين.

قسوة القلب من أربعة أشياء إذا جاوزت قدر الحاجة: الأكل والنوم والكلام والمخالطة، كما أن البدن إذا مرض لم ينفع فيه الطعام والشراب فكذلك إذا مرض بالشهوات لم تنجع فيه المواعظ(١).

جنة الدنيا:

الإقبال على الله تعالى، والإنابة إليه، والرضاء به، وعنه، وامتلاء القلب من محبته، واللهج بذكره، والفرح والسرور بمعرفته؛ ثواب عاجل وجنة وعيش لا نسبة لعيش الملوك إليه البته وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة (٢).

القوة قوة القلب:

المؤمن قوته في قلبه وكلما قوي قلبه قوي بدنه، وأما الفاجر فإنه وإن كان قوي البدن فهو أضعف شيء عند الحاجة فتخونه قوته عند أحوج ما يكون إلى نفسه.

وتأمل قوة أبدان فارس والروم كيف خانتهم عند أحوج ما كانوا إليها وقهرهم أهل الإيمان بقوة أبدانهم وقلوبهم (٣).

---

(١) الفوائد [ص١١٩].

(٢) الوابل الصيب [ص٦٩].

(٣) الداء والدواء [ص٨٥].

تأثير الصدقة:

إن للصدقة تأثيرًا عجيبًا في دفع أنواع البلاء ولو كانت من فاجر أو من ظالم، بل من كافر فإن الله تعالى يدفع بها عنه أنواعًا من البلاء وهذا أمر معلوم عند الناس خاصتهم وعامتهم وأهل الأرض كلهم مقرون به لأنهم جربوه.

متى يبلغ العبد الراحة؟

ليس للعبد مستراح إلا تحت شجرة طوبى، ولا للمحب قرار إلا يوم المزيد، اشتغل به في الحياة يكفك ما بعد الموت، يا منفقًا بضاعة العمر في مخالفة حبيبه والبعد منه ليس في أعدائك أضر عليك منك.

مَا تَبْلُغُ الْأَعْدَاءُ مِنْ جَاهِلٍ ... مَا يَبْلُغُ الْجَاهِلُ مِنْ نَفْسِهِ[1]

سلِّم تسلم:

لابد من نفوذ القدر فاجنح للسلم، لله ملك السماوات والأرض واستقرض منك حبة فبخلت بها! وخلق سبعة أبحر وأحب منك دمعة فقحطت عينك بها[2]!

شفاعة المحبة لأهلها:

إن الحبيب يسامح بما لا يسامح به سواه؛ لأن المحبة أكبر شفعائه وإذا هفا هفوة ملكه عاقبتها بأن جعلها سببًا لرفعته وعلو درجته، فيجعل تلك الهفوة سببًا لتوبة نصوح وذل خاص وانكسار بين يديه، وأعمال صالحة تزيد في قربه منه أضعاف ما كان عليه قبل الهفوة فتكون تلك الهفوة أنفع له من حسنات كثيرة وهذا من علامات اعتناء الله بالعبد وكونه من أحبابه وحزبه[3].

---

(١) الفوائد [ص٨٧].

(٢) الفوائد[ص٨٧].

(٣) المدراج (٢/ ٤٥٥).

قيمة الوقت:

إن الواردات سريعة الزوال تمر أسرع من السحاب وينقضي الوقت بما فيه، فلا يعود عليك منه إلا أثره وحكمه فاختر لنفسك ما يعود عليك من وقتك، فإنه عائد عليك لامحالة لهذا يقال للسعداء: ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة: ٢٤].

ويقال للأشقياء: ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ [غافر: ٤٠].

منبر العز الخالد:

فلما جلس الرسول على منبر العز، وما نزل عنه قط، مدت الملوك أعناقها بالخضوع إليه، فمنهم من سلم إليه مفاتيح البلاد، ومنهم من أخذ في الجمع والتأهب للحرب، ولم يدر أنه لم يزد على جمع الغنائم وسوق الأسارى إليه. فلما تكامل نصره وبلغ الرسالة وأدى الأمانة وجاءه منشور: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ [الفتح: ١-٣]، وبعده توقيع: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ [النصر: ١-٢]، جاءه رسول ربه يخيره بين المقام في الدنيا وبين لقائه، فاختار لقاء ربه شوقًا إليه، فتزينت الجنان ليوم قدوم روحه الكريمة لا كزينة المدينة يوم قدوم الملك.

إذا كان عرش الرحمن قد اهتز لموت بعض أتباعه فرحًا واستبشارًا بقدوم روحه، فكيف بقدوم روح سيد الخلائق.[1]؟!

---

(١) الفوائد [ص ٨٠].

المرابطة:

هي الثبات واللزوم والإقامة على الصبر والمصابرة فقد يصبر العبد ولا يصابر، وقد يصابر ولا يرابط، وقد يصبر ويصابر ويرابط من غير تعبد بالتقوى، فأخبر سبحانه أن ملاك ذلك كله التقوى وأن الفلاح موقوف عليها فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، فالمرابطة كما أنها لزوم الثغر الذي يخاف هجوم العدو منه في الظاهره، فهي لزوم ثغر القلب لئلا يدخل منه الهوى والشيطان.فيزيله عن مملكته(١).

حياة القلب:

وقد أجمع السائرون إلى الله أن القلوب لا تعطى مناها حتى تصل إلى مولاها، ولا تصل مولاها إلا إذا كانت صحيحة سليمة، ولا تكون صحيحة سليمة حتى ينقلب داؤها فيصير نفس دوائها، ولا يصح لها ذلك إلا بمخالفة هواها، فهواها مرضها، وشقاها مخالفته، فإن استحكم المرض قتل أو كاد، وكما أن من نهى نفسه عن الهوى كانت الجنة هي مأواه، كذلك يكون قلبه في هذه الدار جنة عاجلة لا يشبه نعيم أهلها نعيمًا البتة (٢).

الغيرة:

أصل الدين الغيرة، ومن لا غيرة له لا دين له، فالغيرة تحمي القلب، فتحمى له الجوارح، فتدفع السوء والفواحش، وعدم الغيرة تميت القلب فتموت له الجوارح، فلا يبقى عندها دفع البتة، ومثل الغيرة في القلب مثل القوة التي تدفع المرض وتقاومه، فإذا ذهبت وجد الداء التي تدفع المرض وتقاومه فإذا ذهبت القوة وجد المحل قابلًا ولم يجد

(١) عدة الصابرين [ص٣٧].

(٢) الداء والدواء[١١٥-١١٦].

دافعًا، فتمكن فكان الهلاك، ومثلها مثل صياصي الجاموس التي يدفع بها عن نفسه وولده، فإذا كسرت طمع فيه عدوه[١].

الحكمة في الحدود:

وتأمل حكمته في إفساد العضو الذي باشر العبد به الجناية كما أفسد على قاطع الطريق يده ورجله اللتين هما آلة قطعه ولم يفسد على القاذف لسانه الذي جنى به إذ مفسدته تزيد على مفسدة الجناية ولم يبلغها، فاكتفى من ذلك بإيلام جميع بدنه بالجلد.

فإن قيل: فهلا أفسد على الزاني فرجه الذي باشر به المعصية؟!

قيل: لا، لوجوه

أحدهما- أن مفسدة ذلك تزيد على مفسده الجناية إذ فيه قطع النسل وتعريضه للهلاك.

الثاني- أن الفرج عضو مستور لا يحصل بقطعه مقصود الحد من الردع والزجر لأمثاله من الجباة بخلاف قطع اليد.

الثالث- أنه إذا قطع يده أبقي له يدًا أخرى تعوض عنها بخلاف الفرج.

الرابع- أن لذة الزنا عمت جميع البدن فكان الأحسن أن تعم العقوبات جميع البدن وذلك أولي من تخصيصها ببضعة منه، فعقوبات الشرع جاءت على أتم الوجوه وأوفقها للعقل و أقومها بالمصلحة[٢].

---

(١) الداء والدواء [١٠٦-١٠٧].

(٢) السابق[ص١٦٠].

علم الصحابة:

أي خصلة خير لم يسبقوا إليها؟ وأي خطة رشد لم يستدلوا عليها؟! تالله لقد وردوا رأس الماء من عين الحياة عذبًا صافيًا زلالًا، وأطدوا قواعد الإسلام فلم يدعوا لأحد بعدهم مقالًا، فتحوا القلوب بعدلهم بالقرآن والإيمان والقرى بالجهاد بالسيف والسنان، وألقوا إلى التابعين ما تلقوه من مشكاة النبوة خالصًا وكان سندهم فيه نبيهم ﷺ عن جبريل عن رب العالمين سندًا صحيحًا عاليًا وقالوا: هذا عهد نبينا إلينا وقد عهدنا إليكم وهذه وصية ربنا وفرضه علينا وهي وصيته وفرضه عليكم فجرى التابعون لهم بإحسان على منهاجهم القويم واقتفوا على آثارهم صراطهم المستقيم، ثم سلك تابعوا التابعين هذا المسلك الرشيد ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٤]، وكانوا بالنسبة إلى من قبلهم كما قال أصدق القائلين: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الواقعة: ١٣-١٤][1].

العلم والعمل قرينان:

إن أولى ما يتنافس فيه المتنافسون وأحرى ما يتسابق في حلبة سباقه المتسابقون ما كان بسعادة العبد في معاشه ومعاده كفيلًا، وعلى طريق هذه السعادة دليلًا، وذلك العلم النافع والعمل الصالح اللذان لا سعادة للعبد إلا بهما ولا نجاة له إلا بالتعلق بسببها، فمن رزقهما فقد فاز وغنم، ومن حرمهما فالخير كله قد حُرم، وهما مورد انقسام العباد إلى مرحوم ومحروم، وبهما يتميز البر من الفاجر، والتقي من الغوى، والظالم من المظلوم، ولما كان العلم قرينًا وشافعًا وشرفه لشرف معلومه تابعًا، كان أشرف العلوم على الإطلاق علم التوحيد وأنفعها على أحكم أفعال العبيد، ولا سبيل إلى اقتباس هذين النورين وتلقي هذين العلمين إلا من مشكاة من قامت الأدلة القاطعة على عصمته، وصرحت

(١) إعلام الموقعين(٢/ ٩).

الكتب السماوية بوجوب طاعته ومتابعته وهو الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣-٤].

العلماء والفقهاء:

فقهاء الإسلام من دارت الفتيا على أقوالهم بين الأنام الذين خصوا باستنباط الأحكام، وعنوا بضبط الحلال والحرام، فهم في الأرض بمنزلة النجوم في السماء بهم يهتدي الحيران في الظلماء، وحاجة الناس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب، وطاعتهم أفرض عليهم من طاعة الأمهات والآباء بنص الكتاب.

صلاح النية:

كل حي فله إرادة وعمل بحسبه، وكل متحرك فله غاية يتحرك إليها، ولا صلاح له إلا أن تكون غاية حركته ونهاية مطلبه: هو الله وحده. كما لا وجود له إلا أن يكون الله وحده هو ربه وخالقه، فوجوده بالله وحده، وكماله أن يكون لله وحده. فما لا يكون به لا يكون، ومالا يكون له لا ينفع ولا يدوم، ولهذا قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

ولم يقل لعدمتا، إذ هو سبحانه قادر على أن يبقيهما على وجه الفساد، لكن لا يمكن أن تكونا صالحتين إلا بأن يكون فاطرهما وخالقهما هو المعبود وحده لا شريك له، فإن صلاح الأعمال والحركات بصلاح نياتها ومقاصدها، فكل عمل فهو تابع لنية عامله وقصده وإرادته[1].

حاجة الناس إلى الشرع:

الحاجة إلى الشريعة أشد من الحاجة إلى التنفس فضلًا عن الطعام والشراب لأن غاية ما يقدر في عدم التنفس والطعام والشراب موت البدن وتعطل الروح عنه، وأما

(١) إغاثة اللهفان [ص٤٩٣].

ما يقدر عند عدم الشريعة ففساد الروح والقلب جملة وهلاك الأبدان وشتان بين هذا وهلاك البدن بالموت، فليس الناس قط إلى شيء أحوج منهم إلى معرفة ما جاء به الرسول ﷺ، والقيام به، والدعوة إليه، والصبر عليه، وجهاد من خرج عنه حتى يرجع إليه، وليس للعالم صلاح بدون ذلك البتة ولا سبيل إلى الوصول إلى السعادة والفوز الأكبر إلا بالعبور على هذا الجسر[1].

فتاوى الجاهلين:

قد أقام سبحانه لكل عالم ورئيس وفاضل من يظهر مماثلته، ويرى الجهال وهم الأكثرون مساجاته ومشاكلته، وأنه يجرى معه في الميدان، وأنهما عند المسابقة كفرسي رهان، ولا سيما إذا طول الأردان، وأرخى الذوائب الطويلة وراءه كذنب الأتان، وهذا باللسان، وخلاله الميدان الطويل من الفرسان.

فَلَوْ لَبِسَ الْحِمارُ ثِيابَ خَزٍّ ... لَقَالَ النَّاسُ يَالَكَ مِنْ حِمَارِ

وهذا الضرب إنما يستفتون بالشكل لا بالفضل، وبالمناصب لا بالأهلية، قد غرهم عكوف من لا علم عنده عليهم، ومسارعة أجهل منهم إليهم تعج منهم الحقوق إلى الله عجيبًا، وتضح منهم الأحكام إلى من أنزلها صجيجًا، فمن أقدم بالجرأة على ما ليس له من فتيا أو قضاء أو تدريس استحق اسم الذم، ولم يحل قبول فتياه ولا قضائه هذا حكم دين الإسلام.

وَإِنْ رَغِمَتْ أُنُوفٌ مِنْ أُنَاسٍ ... فَقُلْ يَارَبِّ لَا تُرْغِمْ سِوَاهَا[2]

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٥).

(٢) إعلام الموقعين (٤/ ٢٢٨).

الزهد:

من أحسن ما قيل في الزهد كلام الحسن أو غيره: ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو لم تصبك فهذا من أجمع الكلام في الزهد وأحسنه(١).

متى كان المال في يدك لا في قلبك لم يضرك ولو كثر، ومتى كان في قلبك ضرك ولو لم يكن في يدك منه شيء، قيل للإمام أحمد: أيكون الرجل زاهدًا ومعه ألف دينار؟ قال: نعم على شريطة ألا يفرح إذا زادت ولا يحزن إذا نقصت، ولهذا كان الصحابة أزهد الأمة مع ما بأيدهم من الأموال(٢).

رحمة الله بعبده:

العبد لجهله بمصالح نفسه وجهله بكرم ربه وحكمته ولطفه لا يعرف التفاوت بين ما منع منه وبين ما ذخر له، بل هو مولع بحب العاجل وإن كان دنيئًا، وبقلة الرغبة في الآجل وإن كان عليًا ولو أنصف العبد ربه، وأنى له ذلك، لعلم أن فضله عليه فيما منعه من الدنيا ولذاتها ونعيمها أعظم من فضله عليه فيما آتاه من ذلك، فما منعه إلا ليعطيه، ولا ابتلاه إلا ليعافيه، ولا امتحنه إلا ليصافيه، ولا أماته إلا ليحييه، ولا أخرجه إلى هذه الدار إلا ليتأهب منها للقدوم عليه وليسلك الطريق الموصلة إليه(٣).

---

(١) المدارج (٢/ ١٣).

(٢) السابق (١/ ٤٦٥).

(٣) الفوائد [ص٧٥].

الاستسلام لحكم الرسول ﷺ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥]، أقسم سبحانه بنفسه المقدسة قسمًا مؤكدًا بالنفي قبله على عدم إيمان الخلق حتى يحكموا رسوله في كل ما شجر بينهم من الأصول والفروع، وأحكام الشرع وأحكام المعاد وسائر الصفات وغيرها، ولم يثبت لهم الإيمان بمجرد هذا التحكيم، حتى ينتفي عنهم الحرج وهو ضيق الصدر، وتنشرح صدروهم لحكمه كل الانشراح وتنفسح له كل الانفساح، وتقبله كل القبول ولم يثبت لهم الإيمان بذلك أيضًا حتى ينضاف إليه مقابلة حكمه بالرضى والتسليم وعدم المنازعة وانتفاء المعارضة والاعتراض.

أصول الخطايا:

أصول الخطايا كلها ثلاثة:

الكبر، وهو الذي أصار إبليس إلى ما أصاره.

والحرص، وهو الذي أخرج آدم من الجنة.

والحسد، وهو الذي جَرَّأ أحد ابني آدم على أخيه.

فمن وُقي شر هذه الثلاثة فقد وقي الشر، فالكفر من الكبر، والمعاصي من الحرص، والبغي والظلم من الحسد[1].

فقر العبد إلى ربه:

ماذا يملك من أمره من ناصيته بيد الله ونفسه بيده، وقلبه بين أصبعين من أصابعه يقلبه كيف يشاء، وحياته بيده وموته بيده، وسعادته بيده، وشقاوته بيده وحركاته

(١) الفوائد [ص٧٥].

وسكناته وأقواله وأفعاله بإذنه ومشيئته، فلا يتحرك إلا بإذنه، ولا يفعل إلا بمشيئته. إن وكله هو إلى نفسه وكله إلى عجز وضيعة وتفريط وذنب وخطيئة، وإن وكله إلى غيره وكله إلى من لا يملك له ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا. وإن تخلى عنه استولى عليه عدوه وجعله أسيرًا له. فهو لا غنى له عنه طرفة عين، بل هو مضطر إليه على مدى الأنفاس في كل ذرة من ذراته باطنًا وظاهرًا. فاقته تامة إليه. ومع ذلك فهو متخلف عنه معرض عنه، يتبغض إليه بمعصيته، مع شدة الضرورة إليه من كل وجه، قد صار لذكره نسيًّا واتخذه وراءه ظهريًّا، هذا وإليه مرجعه وبين يديه موقفه[١].

هلم إلى ربك:

من أعجب الأشياء أن تعرفه ثم لا تحبه، وأن تسمع داعيه ثم تتأخر عن الإجابة، وأن تعرف قدر الربح في معاملته ثم تعامل غيره، وأن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض له وأن تذوق ألم الوحشة في معصيته ثم لا تطلب الأنس بطاعته، وأن تذوق عصرة القلب عند الخوض في غير حديثه والحديث عنه ولاتشتاق إلى انشراح الصدر بذكره ومناجاته وأن تذوق العذاب عند تعلق القلب بغيره ولا تهرب منه بنعيم الإقبال عليه والإنابة إليه!!

وأعجب من هذا علمك أنك لابد لك منه وأنك أحوج شيء إليه وأنت عنه معرض وفيما يبعدك عنه راغب!

سبيل المحبة الحقيقية:

أخبر سبحانه أن أداء فرائضه أحب ما يتقرب إليه المتقربون ثم بعدها النوافل، وأن المحب لا يزال يكثر من النوافل حتى يصير محبوبًا لله، فإذا صار محبوبًا لله أوجبت محبة الله له محبة أخرى منه لله فوق المحبة الأولى، فشغلت هذه المحبة قلبه عن الفكرة

---

(١) الفوائد [ص٧٤].

والاهتمام بغير محبوبه وملكت عليه روحه، ولم يبق فيه سعة لغير محبوبه إلبتة، فصار ذكر محبوبه وحبه ومثله الأعلى مالكًا لزمام قلبه، مستوليًا على روحه استيلاء المحبوب على محبه الصادق في محبته التي قد اجتمعت قوى حبه كلها له[١].

الذَّ بهم بالعلم:

قيل لامرأة الزبير بن بكَّار أو غيره: هنيئًا لك إذ ليست لك ضرة فقالت: والله لهذه الكتب أضر على من عدة ضرائر.

وحدثني أخو شيخنا عبد الرحمن بن تيمية عن أبيه قال: كان الجد إذا دخل الخلاء يقول: اقرأ في هذا الكتاب وارفع صوتك حتى أسمع، وأعرف من أصابه مرضٌ من صُداع وحُمَّى وكان الكتاب عند رأسه فإذا وجد إفاقة قرأ فيه، فإذا غلب وضعه فدخل عليه الطبيب يومًا وهو كذلك فقال: إن هذا لا يحل لك فإنك تعين على نفسك وتكون سببًا لفوات مطلوبك.

وحدثنى شيخنا قال: ابتدأني مرض فقال لي الطبيب: إن مطالعتك في العلم يزيد المرض فقلت: لا أصبر على ذلك وأنا أحاكمك إلى علمك أليست النفس إذا فرحت وسُرَّت قويت الطبيعة فدفعت المرض؟فقال: بلى فقلت له: فإن نفسى تُسرُّ بالعلم فتقوى به الطبيعة فأجد راحة فقال: هذا خارج عن علاجنا[٢].

بالحب تهون الصعاب:

قد أخبرني بعض الأطباء قال: إنى ألتذ بالدواء الكريه إذا علمت ما يحصل به من الشفاء وأضعه على لسانى وأترشفه[٣] محبة له. ومن هذا التذاذ المحبين بالمشاق التي

---

(١) الداء والدواء [ص ٢٦٢-٢٦٣].

(٢) روضة المحبين[ص٦٨].

(٣) أي أمصه.

توصلهم إلى وصال محبوبهم وقربه، وكلما ذكروا روح الوصال وأن ما هم فيه طريق موصل إليه لَذَّلهم مقاساته وطاب لهم تحملك، كما قال الشاعر:

لَهَا أَحَادِيثُ مِنْ ذِكْرَاكَ تَشْغَلُهَا ... عَنِ الشَّرَابِ وَتُلْهِيهَا عَنِ الزَّادِ
لَهَا بِوَجْهِكَ نُورٌ تَسْتَضِئُ بِهِ ... وَمِنْ حَدِيثِكِ فِي أَعْقَابِهَا حَادِي
إِذَا شَكَتْ مِنْ كَلَالِ السَّيرِ أَوْعَدَهَا ... روح اللقاء فتقوى عند ميعاد [1]

ملاك الأمر

ملاك الأمر كله الرغبة في الله وإرادة وجهه والتقرب إليه بأنواع الوسائل، والشوق إلى الوصول إليه وإلى لقائه، فإن لم يكن للعبد همة إلى ذلك فالرغبة في الجنة ونعيمها وما أعد الله فيها لأوليائه، فإن لم تكن له همة عالية تطالبه بذلك فخشية النار وما أعد الله فيها لمن عصاه، فإن لم تطاوعه نفسه بشيء من ذلك فليعلم أنه خلق للجحيم لا للنعيم ولا يقدر على ذلك بعد قدر الله وتوفيقه إلا بمخالفة هواه فهذه فصول أربعة هن ربيع المؤمن وصيفه وخريفه وشتاؤه.

وهن منازله في سيره إلى الله- عَزَّ وَجَلَّ - وليس له منزلة غيرها[2].

كعبة القلب:

إن الله - عَزَّ وَجَلَّ - ألا ينال ما عنده إلا بطاعته، ومن كان لله كما يريد كان الله له فوق ما يريد، فمن أَقبل إِليه تلقاه من بعيد، ومن تصرف بحوله وقوته أَلان له الحديد، ومن ترك لأَجله أَعطاه فوق المزيد، ومن أَراد مراده الديني أَراد ما يريد. ثم اسم بسرك إِلى المطلب الأعلى واقصر حبك وتقربك على من سبق فضله وإِحسانه إِليك كل سبب منك، بل هو الذي جاد عليك بالأسباب، وهيأها وصرف عنك موانعها وأَوصلك بها

(١) روضة المحبين [ص٧١]، والحادى هو المنشد الذي يسير أمام الإبل لينشطها في السير، والكلال هو التعب والإعياء.

(٢) السابق [ص٣٤٣].

إلى غايتك المحمودة. فتوكل عليه وحده وعامله وحده وآثر رضاه وحده. واجعل حبه ومرضاته هو كعبة قلبك التي لا تزال طائفًا بها . مستلمًا لأركانها، واقفًا بملتزمها، فيا فوزك ويا سعادتك إن اطلع سبحانه على ذلك من قلبك[١].

أي الهمين همك؟

إذا أصبح العبد وأمسى وليس همه إلا الله وحده تحمل الله سبحانه حوائجه كلها، وحمل عنه كل ما أهمه، وفرغ قلبه لمحبته، ولسانه لذكره، وجوارحه لطاعته، وإن أصبح وأمسى والدنيا همه حمله الله همومها و غمومها و أنكادها، ووكله إلى نفسه، فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخلق، ولسانه عن ذكره بذكرهم، وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم، فهو يكدح كدح الوحش في خدمة غيره كالكير ينفخ بطنه ويعصر أضلاعه في نفع غيره. فكل من أعرض عن عبودية الله وطاعته ومحبته بلي بعبودية المخلوق ومحبته وخدمته. قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: ٣٦].

سبيل ولادة القلب

صدق التأهب للقاءِ الله من أنفع ما للعبد وأبلغه فى حصول استقامته، فإن من استعد للقاءِ الله انقطع قلبه عن الدنيا وما فيها ومطالبها، وحمدت من نفسه نيران الشهوات وأخبتَ قلبه إلى ربه تعالى وعكفت همته على الله وعلى محبته وإيثار مرضاته، واستحدثت همة أُخرى وعلومًا أُخر وولد ولادة أُخرى تكون نسبة قلبه فيها إلى الدار الآخرة كنسبة جسمه إلى هذه الدار بعد أَن كان فى بطن أُمه فيولد قلبه ولادة حقيقية كما ولد جسمه حقيقة، وكما كان بطن أُمه حجابًا لجسمه عن هذه الدار فهكذا نفسه وهواه حجاب لقلبه عن الدار الآخرة، فخروج قلبه عن نفسه بارزًا إلى الدار الآخرة كخروج جسمه عن بطن أُمه بارزًا إلى هذه الدار[٢].

(١) طريق الهجرتين [ص٣١].

(٢) طريق الهجرتين [ص١٩٠].

عدوك بين جنبيك:

إن الله سبحانه فيما قضي به أن ما عنده لا ينال إلا بطاعته، وأنه ما استجلبت نعم الله بغير طاعته، ولا استديمت بغير شكره، ولا عوقت وامتنعت بغير معصيته، وكذلك إذا أنعم عليك ثم سلبك النعمة فإنه لم يسلبها لبخل منه ولا استئثار بها عليك وإنما أنت المسبب فى سلبها عنك، فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [الأنفال: ٥٣]، فما أُزيلت نعم الله بغير معصيته:

إذا كُنْتَ فِى نِعْمَةٍ فَارْعَهَا ... فَإِنَّ المعاصِى تُزِيلُ النِّعَم

فآفتك من نفسك، وبلاؤك من نفسك، وأنت فى الحقيقة الذي بالغت فى عداوتك، وبلغت من معاداة نفسك ما لا يبلغ العدو منك[١].

صحة القلب:

من علامات صحة القلب أنه لا يزال يضرب على صاحبه حتى ينيب إلى الله ويخبت إليه، ويتعلق به تعلق المحب المضطر إلى محبوبه، الذي لا حياة له ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا برضاه وقربه والأنس به، فبه يطمئن، وإليه يسكن، وإليه يأوى، وبه يفرح، وعليه يتوكل، وبه يثق، وإياه يرجو، وله يخاف. فذكره قوته وغذاؤه محبته، والشوق إليه حياته ونعيمه ولذته وسروره، والالتفات إلى غيره والتعلق بسواه داؤه، والرجوع إليه دواؤه، فإذا حصل له ربه سكن إليه واطمأن به وزال ذلك الاضطراب والقلق، وانسدت تلك الفاقة، فإن فى القلب فاقة لا يسدها شيء سوى الله تعالى أبدًا، وفيه شعث لا يلمه غير الإقبال عليه، وفيه مرض لا يشفيه غير الإخلاص له، وعبادته وحده[٢].

---

(١) السابق [ص٧٢](١/ ٧٨-٧٩).

(٢) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان [٧٨-٧٩].

المفتونون بالغناء:

قضوا حياتهم لذة وطربًا، واتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا، مزامير الشيطان أحب إليهم من استماع سور القرآن، لو سمع أحدهم القرآن من أوله إلى آخره لما حرك له ساكنًا، ولا أزعج له قاطنًا، ولا أثار فيه وجدًا، ولا قدح فيه من لواعج الشوق إلى الله زندًا، حتى إذا تلى عليه قرآن الشيطان، وولج مزموره سمعه، تفجرت ينابيع الوجد من قلبه على عينه فجرت، وعلى أقدامه فرقصت، وعلى يديه فصفقت، وعلى سائر أعضائه فاهتزت وطربت، وعلى أنفاسه فتصاعدت، وعلى زفراته فتزايدت، وعلى نيران أشواقه فاشتعلت، فيا أيها الفاتن المفتون، والبائع حظه من الله بنصيبه من الشيطان صفقة خاسر مغبون، هلا كانت هذه الأشجان، عند سماع القرآن؟ وهذه الأذواق والمواجيد، عند قراءة القرآن المجيد[١]؟

مفاسد الزنا:

ومفسدة الزنا مناقضة لصلاح العالم، فإن المرأة إذا زنت أدخلت العار على أهلها وزوجها وأقاربها، ونكست رؤوسهم بين الناس، وإن حملت من الزنا: فغن قتلت ولدها جمعت بين الزنا والقتل وإن أبقته حملته على الزوج فأدخلت على أهلها وأهله أجنبيًا ليس منهم، فورثهم وأما زنا الرجل فإنه يوجب اختلاط الأنساب أيضًا وإفساده المرأة المصونة وتعريفها للتلف والفساد، ففي هذه الكبيرة خراب الدنيا والدين[٢].

المعاصي جهل بعظمة الله:

لو تمكن وقار الله وعظمته في قلب العبد لما تجرَّأ على معاصيه، وربما اغتر مغتر وقال: إنما يحملني على المعاصي حسن الرجاء وطمعي في عفوه لا ضعف عظمته في قلبي.

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٢٧).

(٢) «الداء والدوار» (١١٣-١١٤) ط: دار الكتب العلمية.

وهذا: من مغالطة النفس، فإن عظمة الله تعالى وجلاله في قلب العبد تقتضي تعظيم حرماته، وتعظيم حرماته يحول بينه وبين الذنوب والمتجرئون على معاصيه ما قدروا الله حق قدره، وكيف يقدره حق قدره أو يعظمه ويكبره ويرجو وقاره ويجله من يهون عليه أمره ونهيه؟!

هذا من أمحل المحال وأبين الباطل وكفى بالعاصي عقوبة أن يضمحل من قلبه تعظيم الله جل جلاله وتعظيم حرماته ويهون عليه حقه[١].

قرة العيون:

إنها محل المناجاة والقربة ولا واسطة فيها بين العبد وبين ربه، فلا شيء أقر لعين المحب ولا ألذ لقلبه ولا أنعم لعيشه منها إذا كان محبًا فإنه لا شيء آثر عند المحب ولا أطيب له من خلوته بمحبوبه ومناجاته له ومثوله بين يديه، وقد أقبل محبوبه عليه، وكان قبل ذلك معذبًا بمقاساة الأغيار ومواصلة الخلق والاشتغال بهم، فإذا قام إلى الصلاة هرب من سوى الله إليه، وآوى عنده واطمأن بذكره وقرت عينه بالمثول بين يديه ومناجاته، فلا شيء أهم إليه من الصلاة، كأنه في سجن وضيق وغم حتى تحضر الصلاة فيجد قلبه قد انفسح وانشرح واستراح، كما قال النبي ﷺ لبلال: «**يا بلال، أرحنا بالصلاة**»، ولم يقل: أرحنا منها، كما يقول المبطلون الغافلون.

وقال بعض السلف: ليس بمستكمل الإيمان من لم يزل في هم وغم حتى تحضر الصلاة فيزول همه وغمه، أو كما قال. فالصلاة قرة عيون المحبين وسرور أرواحهم، ولذة قلوبهم، وبهجة نفوسهم، يحملون هم الفراغ منها إذا دخلوا فيها كما يحمل الفارغ البطال همها حتى يقضيها بسرعة، فَلَهُمْ فيها شأْن وللنقَّارين شأْن[٢].

---

(١) الداء والدواء [ص١٠٨].

(٢) طريق الهجرتين ص [٣٣٣].

علامات التوفيق:

لما عرف الموفقون قدر الحياة الدنيا وقلة الحياة الدنيا وقلة المقام فيها أماتوا فيها الهوى طلبًا لحياة الأبد لما استيقظوا من نوم الغفلة استرجعوا بالجد ما انتهبه العدو منهم في زمن البطالة فلما طالت عليهم الطريق تلمحوا المقصد فقرب عليهم البعيد، وكلما أمرت لهم الحياة حلا لهم تذكر: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

إياك والغرور:

لعن إبليس وأهبط من منزل العز بترك سجدة واحدة أمر بها. وأخرج آدم من الجنة بلقمة تناولها. وحجب القاتل عنها بعد أن رآها عيانًا بملء كف من دم. وأمر بقتل الزاني أشنع القتلات بإيلاج قدر الأنملة فيما لا يحل. وأمر بإيساع الظهر سياطًا بكلمة قذف أو بقطرة من مسكر. وأبان عضوًا من أعضائك بثلاثة دراهم، فلا تأمنه أن يحبسك في النار بمعصية واحدة من معاصيه ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس: ١٥].

دخلت امرأة النار في هرة. وإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالا يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب، وإن الرجل ليعمل بطاعة الله ستين سنة، فإذا كان عند الموت جار في الوصية فيختم له بسوء عمله فيدخل النار(١).

السابقون المقربون:

وجملة أمرهم: أنهم قوم قد امتلأت قلوبهم من معرفة الله ، وغمرت بمحبته وخشيته وإجلاله ومراقبته ، فسرت المحبة في أجزائهم فلم يبق فيها عرق ولا مفصل إلا وقد دخله الحب.

قد أنساهم حبه ذكر غيره، وأوحشهم أنسهم به ممن سواه وانشغلوه بذكره عن ذكر من سواه، وبخوفه ورجائه والرغبة إليه والرهبة منه والتوكل عليه والإنابة إليه والسكون

(١) «الفوائد» [ص ٨١].

إليه والتذلل والانكسار بين يديه عن تعلق ذلك منهم بغيره. فإذا وضع أحدهم جنبه على مضجعه صعدت أنفاسه إلى إلهه ومولاه واجتمع همه عليه متذكرًا صفاته العلى وأسماءَه الحسنى مشاهدًا له فى أسمائه وصفاته، قد تجلت على قلبه أنوارها فانصبغ قلبه بمعرفته ومحبته، فبات جسمه فى فراشه يتجافى عن مضجعه، وقلبه قد أَوى إلى مولاه وحبيبه فآواه إليه، وأسجده بين يديه خاضعًا خاشعًا ذليلًا منكسرًا من كل جهة من جهاته.

فيا لها سجدة ما أشرفها من سجدة، لا يرفع رأْسه منها إلى يوم اللقاءِ[١].

سبيل الذل والانكسار:

لا ينتفع بنعمة الله بالإيمان والعلم إلا من عرف نفسه ووقف بها عند قدرها ولم يتجاوزه إلى ما ليس له، ولم يتعد طوره ولم يقل هذا لي ، وتيقن أنه ومن الله وبالله فهو المانُّ به ابتداء وإدامة، بلا سبب من العبد ولا استحقاق منه ، فتذله نعم الله عليه وتكسره كسرة من لا يرى لنفسه ولا فيها خيرًا البتة، وأن الخير الذي وصل إليه فهو لله وبه ومنه فتحدث له النعم ذلًا وانكسارًا عجيبًا لا يعبر عنه. فكلما جدد له نعمة ازداد له ذلًا وانكسارًا وخشوعًا ومحبة وخوفًا ورجاءً، وهذا نتيجة علمين شريفين: علمه بربه وكماله وبره وغناه وجوده وإحسانه ورحمته، وأن الخير كله في يديه وهو ملكه يؤتي منه من يشاء ويمنع منه من يشاء، وله الحمد على هذا، وهذا أكمل حمد وأتمه، وعلمه بنفسه ووقوفه على حدها وقدرها ونقصها وظلمها وجهلها، وأنها لا خير فيها البتة ولا لها ولا بها ولا منها وأنها ليس لها من ذاتها إلا العدم[٢].

---

(١) «طريق الهجرتين» [ص ٢٢٤].

(٢) الفوائد [ص١٦٢].

لولا الله لهلكنا:

العبد فى هذه الدار مفتون بشهواته ونفسه الأمارة بالسوء، وشيطانه المغوي المزين، وقرنائه وما يراه، ويشاهده، مما يعجز صبره عنه، ويتفق مع ذلك ضعف الإيمان واليقين وضعف القلب ومرارة الصبر، وذوق حلاوة العاجل، وميل النفس إلى زهرة الحياة الدنيا، وكون العوض مؤجلًا فى دار أخرى غير هذه الدار التي خلق فيها، وفيها نشأ، فهو مكلفٌ بأن يترك شهوته الحاضرة المشاهدة لغيب طلب منه الإيمان به:

فَوَ اللهِ، لَوْلا اللهُ يُسْعِدُ عَبْدَهُ ... تَوْفِيقِه وَاللهُ بِالْعَبْدِ أَرْحَمُ
لَمَا ثَبَتَ الإيمَانُ يَوْمًا بِقَلْبِهِ ... عَلَى هذِه العِلاّتِ، وَالأَمْرُ أَعْظَمُ
وَلا طَاوَعَتْهُ النّفْسُ فى تَرْكِ شَهْوَةٍ ... مَخَافَةَ نَارٍ جَمْرهَا يَتَضَرَّمُ
وَلا خَافَ يَوْمًا مِنْ مَقَامِ إلهِهِ ... عَلَيْهِ بحُكْمِ القِسْطِ، إذْ لَيْسَ يَظْلِمُ[1]

خطر الغناء:

جاور الخطيئة قومًا من بني كلب، فمشى ذو الدين منهم بعضهم إلى بعض وقالوا: يا قوم، إنكم قد رميتم بداهية هذا الرجل شاعر، والشاعر يظن فيحق، ولا يستأنى فيتثبت ولا يأخذ الفضل فيعفو، فأتوه وهو في خبائه فقالوا: يا أبا مليكة، إنه قد عظم حقك علينا بتخطيك القبائل إلينا، وقد أتيناك نسألك عما تحب فنأتيه وعما تكره فنزدجر عنه، فقال: جنبوني مغنى مجلسكم، ولا تسمعوني أغاني شبيبتكم فإن الغناء رقية الزنا[2].

فإن كان هذا الشاعر المفتون اللسان، الذي هابت العرب هجاءه خاف عاقبة الغناء وأن تصل رقيته إلى حرمته؛ فما الظن بغيره؟!

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ٥١٧).

(٢) نقل ابن القيم هذا الخبر عن ابن أبي الدنيا بسنده وكان مع الخطيئة أهله وحريمه.

ولا ريب أن كل غيور يجنب أهله سماع الغناء، كما يجنبهن أسباب الريب ومن طرق أهله إلى سماع رقية الزنا فهو أعلم بالإثم الذي يستحقه. ومن الأمر المعلوم عند القوم أن المرأة إذا استصعبت على الرجل اجتهد أن يسمعها صوت الغناء فحينئذ تعطى اللَّيَان، وهذا لأن المرأة سريعة الانفعال للأصوات جدًا، فإذا كان الصوت بالغناء صار انفعالها من وجهين: من جهة الصوت، ومن جهة معناه، ولهذا قال النبي ﷺ لأنجشة حاديه: «**يا أنجشة رويدك رفقًا بالقوارير**»[(١)] يعنى النساء.

فأما إذا اجتمع إلى هذه الرقية الدف والشبابة والرقص بالتخنث والتكسر، فلو حبلت المرأة عن غناء لحبلت من هذه الغناء. فلعمر الله كم من حرة صارت بالغناء من البغايا، وكم من حرٍّ أصبح به عبدًا للصبيان والصبايا، وكم من غيور تبدل به اسمًا قبيحًا بين البرايا، وكم من ذي غنى وثروة أصبح بسببه على الأرض بعد المطارف والحشايا، وكم من في تعورض له فأمسى وقد حلت به أنواع البلايا، وكم أهدى للمشغوف به من أشجان وأحزن فلم يجد بدًا من قبول تلك الهدايا، وكم جرع من غصة وأزال من نعمة وجلب من نقمة وذلك منه من إحدى العطايا وكم حبَّأ لأهله من آلام متنظرة، وغموم متوقعة، وهموم مستقبلة[(٢)].

خطر البدعة:

وقال شيخنا: تزوجت الحقيقة الكافرة بالبدعة الفاجرة فتولد بينهما خسران الدنيا والآخرة[(٣)].

---

(١) رواه البخاري برقم [٦٢١٠]، ومسلم برقم [٢٣٢٣].

(٢) «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٤٧-٢٤٨).

(٣) المدارج (١/ ٢٢٣).

قال بعضهم: تزوجت بدعة الأقوال ببدعة الأعمال فاشتغل الزوجان بالعرس فلم يفجأهم إلا وأولاد الزنا يعيثون في بلاد الإسلام تضج منهم العباد والبلاد إلى الله تعالى [١].

إن السنة بالذات تمحق البدعة ولا تقوم لها، وإذا طلعت شمسها في قلب العبد قطعت من قلبه ضباب كل بدعة وأزالت ظلمة كل ضلالة، إذ لا سلطان للظلمة مع سلطان الشمس ولا يرى العبد الفرق بين السنة والبدعة ويعينه على الخروج من ظلمتها إلى نور السنة إلا المتابعة والهجرة بقلبه كل وقت إلى الله بالاستعانة والإخلاص، وصدق اللجإ إلى الله، والهجرة إلى رسوله بالحرص على الوصول إلى أقواله وأعماله وهديه وسنته[٢].

ذنب فيه منفعة:

إذا أراد الله بعبده خيرًا فتح له أبواب التوبة والندم والانكسار والذل والافتقار والاستعانة وصدق اللجأ إليه ودوام التضرع والدعاء والتقرب إليه بما أمكن من الحسنات ما تكون تلك السيئة به رحمته حتى يقول عدو الله: ياليتنى تركته ولم أوقعه.

وهذا معنى قول بعض السلف إن العبد ليعمل الذنب يدخل به الجنة ويعمل الحسنة يدخل بها النار قالوا: كيف؟.

قال: يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه خائفًا منه، وجلًا باكيًا نادمًا، مستحيًا من ربه تعالى ناكس الرأس بين يديه، منكسر القلب له، فيكون ذلك الذنب سبب سعادة العبد وفلاحه حتى يكون ذلك الذنب أنفع له من طاعات كثيرة بما يترتب عليه من الأمور التي بها سعادة العبد وفلاحه، حتى يكون ذلك الذنب سبب دخوله الجنة.

ويفعل الحسنة، فلا يزال يمُنُّ بها على ربه ويتكبر بها ويرى نفسه ويعجب بها ويستطيل بها ويقول فعلت وفعلت، فيورثه ذلك من العجب والكبر والفخر والاستطالة

---

(١) السابق (١/ ٢٢٢).

(٢) السابق (١/ ٣٧٤).

ما يكون سبب هلاكه، فإذا أراد الله بهذا المسكين خيرًا ابتلاه بأمر يكسره به ويذل به عنقه ويصغر به نفسه عنده وأين أراد به غير ذلك خلاه وعجبه وكبره وهذا هو الخذلان الموجب لهلاكه(١).

الظلم وأكل الحرام:

من نبت جسمه على الحرام فمكاسبه كبريت به يوقد عليه . الحجر المغصوب في البناء أساس الخراب . أتراهم نسوا طي الليالي لمن تقدمهم ﴿وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ [سبأ:٤٥].فما هذا الاغترار ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ [الرعد:٦]. ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يونس:١٠٢]من لهم إذا طلبو العودة فحيل بينهم وبين ما يشتهون؟! سبحان الله كم بكت في تنعم الظالم عين أرملة واحترقت كبد يتيم وجرت دمعة مسكين:﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ [المرسلات:٤٦]، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ [ص:٨٨]، ما ابيض لون رغيفهم حتى اسود لون ضعيفهم، وما سمنت أجسامهم حتى انتحلت أجسام ما استأثروا عليه لا تحتقر دعاء المظلوم فشرر قلبه محمول بعجيج صوته إلى سقف بيتك ويحك نبال أدعيته مصيبة وإن تأخر الوقت قوسه قلبه المقروح ووتره سواد الليل وأستاذه صاحب لأنصرنك ولو بعد حين وقد رأيت لكن لست تعتبر، احذر عداوة من ينام وطرفه باك يقلب وجهه في السماء يرمي سهمًا ما لها غرض سوى الأحشاء منك فربما ولعلها، إذا كانت راحة اللذة تثمر ثمر العقوبة لم يحس تناولها ما تساوى لذة سنة غم ساعة فكيف والأمر بالعكس؟! كم في يم الغرور من تمساح فاحذر ياغائص. ستعلم أيها الغريم قصتك عند تعلق الغرماء بك(٢).

---

(١) الوابل الصيب [٨].

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ٢٤٢).

لا عصمة لولي الله:

ليس شرط ولي الله العصمة، وقد تقاتل أولياء الله في صفين بالسيوف ولما سار بعضهم إلى بعض كان يقال: سار أهل الجنة إلى أهل الجنة وكون ولي الله يرتكب المحظور والمكروه متأولًا أوعاصيًا لا يمنع ذلك من الإنكار عليه ولا يخرجه عن أصل ولاية الله[١].

رياضة الأعضاء:

أي عضو كثرت رياضته قوي وخصوصًا على نوع تلك الرياضة، بل كل قوة فهذا شأنها فإن من استكثر من الحفظ قويت حافظته، ومن استكثر من الفكر قويت قوته المفكرة ولكل عضو رياضة تخصه[٢].

آثار الغذاء:

كل من ألف ضربًا من ضروب هذه الحيوانات اكتسب من طبعه وخلقه فإن تغذى بلحمه كان الشبه أقوى فإن الغاذي شبيه المغتذي[٣].

فوائد الشدائد:

إذا ابتلى الله عبده بشيء من أَنواع البلايا والمحن فإن رده ذلك الابتلاء والمحن إلى ربه وجمعه عليه وطرحه ببابه فهو علامة سعادته وإرادة الخير به. والشدة بتراء لا دوام لها وإن طالت، فتقلع عنه حين تقلع وقد عوض منها أجلّ عوض وأفضله، وهو رجوعه إلى الله بعد أن كان شاردًا عنه، وإقباله عليه بعد أن كان نائيًا عنه وانطراحه على بابه بعد أن كان معرضًا، وللوقوف على أبواب غيره متعرضًا.

---

(١) المدارج (١/ ٥٠٠).

(٢) «زاد المعاد» (٤/ ٢٠٤٧).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٤٠٣).

وكانت البلية فى حق هذا عين النعمة، وإن ساءَته وكرهها طبعه ونفرت منها نفسه فربما كان مكروه النفوس إلى محبوبها سببًا ما مثله سبب وقوله تعالى فى ذلك هو الشفاءُ والعصمة: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

سبيل الصبر على المعصية:

صبر العبد عن المعاصي إنما هو بحسب قوة إيمانه، فكلما كان إيمانه أقوى كان صبره أتمّ وإذا ضعف الإيمان ضعف الصبر، فإن من باشر قلبه الإيمان بقيام الله عليه ورؤيته له، وتحريمه لما حرم عليه، وبغضه له، ومقته لفاعله وباشر قلبه الإيمان بالثواب والعقاب والجنة والنار، وامتنع من أن لا يعمل بموجب هذا العلم.

ومن ظن أنه يقوى على ترك المخالفات والمعاصى بدون الإيمان الراسخ الثابت فقد غلط، فإذا قوي سراج الإيمان فى القلب، وأَضاءَت جهاته كلها به، وأشرق نوره فى أرجائه، سرى ذلك النور إلى الأعضاء، وانبعث إليها، فأسرعت الإجابة لداعى الإيمان، وانقادت له طائعة مذللة غير متثاقلة ولا كارهة بل تفرح بدعوته حين يدعوها، كما يفرح الرجل بدعوة حبيبه المحسن إليه إلى محل كرامته. فهو كل وقت يترقب داعيه، ويتأهب لموافاته﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥][(١)].

تقوى الله وحسن الخلق:

جمع النبي ﷺ بين تقوى الله وحسن الخلق لأن تقوى الله تصلح ما بين العبد وبين ربه وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه فتقوى الله توجب له محبة الله وحسن الخلق يوجب له محبة الناس[(٢)].

---

(١) «طريق الهجرتين» [٢٩٧-٢٩٨].

(٢) «الفوائد» [ص٥٤].

عمارة الوقت:

وقت الإنسان هو عمره في الحقيقة، وهو مادة حياته الأبدية في النعيم المقيم، ومادة معيشته الضنك في العذاب الأليم، وهو يمر مر السحاب، فمن كان وقته لله وبالله فهو حياته وعمره، وغير ذلك ليس محسوبًا من حياته، وإن عاش فيه عيش البهائم، فإذا قطع وقته في الغفلة والسمر والأمانى الباطلة، وكان خير ما قطعه به النوم والبطالة فموت هذا خير له من حياته[١].

(١) الجواب الكافي[١٠٩] ط: دار الكتب العلمية.